جهود الإمام أحمد أبو عصيدة (ت865هـ/1460م) في إثراء الحياة العلمية بالحجاز

The efforts of Imam Ahmad Abu Assida (d. 865 AH/1460 AD) in enriching the scientific life of the Hejaz

أ. أحلام لغريب¹ ، أ.د عبد الغني حروز²

¹ جامعة محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر)، ahlam.leghrib@univ-msila.dz

² جامعة محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر)، abdelghani.hrouz@univ-msila.dz

تاريخ الإرسال: 2023 /02/21 تاريخ القبول: 2023 /03/26 تاريخ النشر: 2023/06/10

الملخص:

نعالج في هذه المقالة موضوعا مهما عن الإمام أحمد أبو عصيدة الذي عاش في كنف الحرمين الشريفين بالحجاز، وقضى عمره هناك يلقت علوم الدين ويرشد الوفود ويثري مجالس العلم فيها ، من خلال إخراج ثلة من طلبة العلم والعلماء وكتابين مميزين ألا وهما رسالة الغريب إلى الحبيب ، وكتاب أنس الغريب وروض الأديب الذين عبرا فيها عن رحلاته ووضع الحال في الحجاز والعلماء المغاربة الزائرين للحجاز ومكانتهم بين علماء الحرمين خاصة صديقه أبو الفضل المشدالي ، ومن هنا اتضح أهمية هذا الموضوع الذي وصلنا من خلاله إلى الاقتناع بأهمية الجهود التي قام بها الإمام أحمد أبي عصيدة في إثراء الساحة العلمية الحجازية من خلال التدريس والجلسات الفكرية، ومكانة المجاورين فيها .

الكلمات المفتاحية: أبو عصيدة ؛ الحجاز ؛ المجاورون ؛ المغرب الأوسط .

Abstract:

In this article, we address an important topic about Imam Ahmed Abu Assida, who lived under the auspices of the Two Holy Mosques in the Hejaz, and spent his life there teaching the sciences of religion, guiding delegations and enriching the councils of science in them, by directing a group of students of science and scientists and two distinctive books, namely the letter of the stranger to the beloved, and the book of Anas al-Gharib and Rawd al-Adib, in which they expressed his travels and the situation in the Hijaz and the Moroccan scholars visiting the Hejaz and their status among the scholars of the Two Holy Mosques, especially his friend Abu al-Fadl al-Mashdali Hence the importance of this topic, through which we reached the conviction of the importance of the efforts made by Imam Ahmad Abi Assida in enriching the Hijazi scientific arena through teaching and intellectual sessions, and the place of the neighbors in it.

Keywords: Abu Assida; Hejaz; Neighbors; Central Maghreb.

مقدمة:

تعد الرحلات الهجازية من التراث الثقافي الذي حفرتة وخلدته النصوص المخطوطة خلال العصر الوسيط وخاصة تلك المغربية، لما حملته في طياتها من زخم علمي وثقافي رسخ لنا معالم حضارية، وبروبكاندا إسلامية ثقافية بناها العلماء المغاربة، وان دلت على شئ فإنها تدل على الرقي الإيماني لفئة نخبة علمية، أبت إلا أن تسكت شغفها العلمي وروحها الطالبة للأنس والجوار والارتواء كما يقول المتصوفة وينهلون إيماناً وهالة روحانية بالتقرب من الكعبة، والمسجد الحرام وقبر الحبيب المصطفى .

هذه النصوص التي ينظر لها الباحثين في الميدان التاريخي كمصدر مهم في توثيق الحوادث التاريخية، وتقييم الحالة الفكرية والاجتماعية خاصة في منطقة الهجاز، جذبتهم فكروا البحوث لها وفي تفاصيلها، والشخصيات التي كتبتها وقامت بها، ممن كان لهم الدور الفعال في تنشيط الحركة

الفكرية في الحرمين الشريفين ممن خلدت أسماهم صفحات التاريخ، واتخذوا من المجاورة والاستقرار بالحجاز أسمى الأمانى وأبلغ المقاصد .

ومن بين هذه الشخصيات الإمام أحمد أبو عبيدة الذي يعد من علماء المغرب الأوسط الذين استقروا بالحجاز، ولعبوا دورا كبيرا في الحياة الفكرية فيها وتركوا بصمة واضحة الملامح، مبرزا من خلالها القدرة العلمية للأئمة المغاربة .

شخصية علمية بجائية رسمت مسارا واضحا واستقطبت الطلبة في باحات الحرمين، وكانت لها السمعة الطيبة بين العلماء ولمع اسمها لدرجة كان لها الأفضلية في إمامة الدرس والصلاة، بالكثير من العلماء ممن كان لهم الوزن والنقل في ميدان الفقه وعلوم القرآن والحديث في ذلك الزمان .

وهذا إن دل على شئ فهو يدل على مدى تمكن ورسوخ المدرسة المغرب أوسطية التي ظلت على مدى الفترة الزمنية الوسيطة والحديثة تخرج ثلة من العلماء ممن فرضوا مكانتهم بعلمهم داخل الحرمين وأسسوا من خلالها لإمامة الدرس واستقطاب الطلاب .

وهكذا نجد أن الكفاءة العلمية والدور الواضح لأبو عبيدة والتي رغم شح المصادر حوله التمسناها من خلال مجهوداته العلمية داخل المنطقة الحجازية وما ورد في رحلته نحوها، وسكوت مصادر التراجم عنه جعلتنا ندرك الأهمية العلمية لدراسة حياة هذه الشخصية وآثارها العلمية .

وقد قمنا في هذه الورقة البحثية بالإجابة على الإشكالية التالية: " إذا كان الإمام أبو عبيدة من الشخصيات العلمية المغاربية التي قررت المجاورة والبقاء في الحجاز، فيما تجسد تأثيره على الساحة العلمية فيها؟".

واعتمدنا في صياغتها على المنهج التاريخي الوصفي الذي اقتضته طبيعة موضوعنا وتخصصنا، وذلك لتقريب الصورة الحقيقية لهذه الشخصية وكشف الغموض عنها، وإبراز مكانتها ودورها في الساحة العلمية والفكرية في المنطقة الحجازية وتنشيطها وهو الهدف الذي نصب له من هذه الدراسة.

وليسهل علينا حصر المعلومات، وتقديمها للقارئ بأسلوب يستطيع استيعابه قمنا بتقسيم ورقتنا إلى العناصر التالية :

01. السيرة الذاتية للإمام أحمد أبو عصيدة .
02. جهود الإمام أبو عصيدة في التأليف.
03. جهود الإمام أحمد أبو عصيدة في تنشيط الحركة العلمية بالحجاز.

1. السيرة الذاتية للإمام أحمد أبو عصيدة :

يعد الإمام أحمد أبو عصيدة من الشخصيات العلمية القلائل الذين لم نقف لهم على ترجمة وافية في كتب التراجم، رغم أن سيرته الذاتية حافلة بالعديد من المحطات التي تسترعى الدراسة والوقوف عندها، ومن بين هذه المحطات نذكر التالي:

1.1 كنيته ونشأته :

هو العلامة الإمام والأديب المتصوف، المجاور أحمد بن أحمد البجائي وكنيته أبو عصيدة وهو الاسم الذي اشتهر به، وما أكد هذا القول كنيته التي أفردتها في رسالته إلى رفيقه المشدالي¹ بقوله: "أحمد بن أحمد شهر بو عصيدة، البجائي..."، ومن هنا نكون وقفنا على الاسم الكامل لهذا العلامة من خلال ترجمته لنفسه.

كما يلحق باسمه بعد البجائي الغساني والتي لم نقف لها على أي انتماء لأية قبيلة فطنت بجاية وضواحيها لكن أبو القاسم سعد يشير إليها في فحوى كلامه بقوله " ...وقد سألنا ما إذا كانت هناك قبيلة غسانية بنواحي بجاية اليوم فلم يدلنا أحد على ذلك . ومن عبارة البجائي نعرف أنه ذو صلة وطيدة بعائلة المشدالي التي لا نعرف أنها غسانية الأصل، أما أبو عصيدة فقد قال عن نفسه أنه (بجائي المنشأ والدار، غساني الأصل) . فهل يشير بذلك إلى الغساسنة ملوك الشام؟ " ²

أما بخصوص ولادته ونشأته فإنه عاش خلال القرن التاسع الهجري³، والمرجح أنه ولد سنة 822هـ / 1419م - العشرية الثالثة من القرن التاسع - بمدينة بجاية، التي نشأ بها⁴، على حد قوله بأنها المنشأ والدار⁵، ودرس فيها علوم القرآن وهو ذو الخمس سنوات وبعد إتمامه تعليمه الابتدائي في مدة قدرت بالعامين والنصف، انتقل لحفظ المتون والأسانيد والاشتغال في الفقه وعلم القراءات⁶، وظل بها على هذا الحال إلى أن انتقل إلى المشرق الإسلامي مارا على تونس ومصر والقدس وطرابلس الشام، ليستقر بعدها في الحجاز، ويجاور بالمدينة المنورة⁷، التي عبر عنها بقوله⁸ : "المدني الآن القرار نزيل الحرمين الشريفين، والحضرتين الكريمتين على لطف الله به"، وهي رحلته التي سنتطرق لها فيما بعد .

أما بخصوص الدافع حول رغبته في الاستقرار بالقرب من المسجد الحرام فراجع إلى أن الحرم المكي والمدني (الحجاز) يملك من الخصائص والمميزات ما يجعل النفوس مشدودة إليه، والأرواح هائمة في حبه، والقلوب عالقة بأكنافه . فهو مهبط الوحي والمكان الذي احتضن الكعبة المشرفة وقبر الرسول، لتجتمع فيه القدسية الدينية والعلمية ما جعل ليس فقط أبو عصيدة بل العديد من المسلمين ينشئون الرحلة إليه قاصدين التحنث بقدسيته والتشرف بالنيل مما يروج في محيطه من معارف وفنون⁹ .

وبهذا نكون قد قدمنا سيرة موجزة عن كنية ونشأة هذا الإمام الرحالة، الذي قضى حياته في طلب العلم والتعليم، وخدمة الحرمين الشريفين ، رغم أن كتب التراجم سكتت عن الترجمة لحياته والمصادر التي تتحدث عنه شحيحة، إلا ما وقع بين أيدينا من ترجمته لنفسه في رسالته لصديقه، التي أشار فيها أيضا إلى رحلته نحو المشرق والتي سنتطرق لها في العنصر التالي .

2.1 رحلاته:

إن الحديث عن الرحلات الحجازية في وقت الإمام من أهم المظاهر التي يمكن دراستها في المغرب، ولهذا ارتأينا أن نوجزها لكم بالطرح قبل الشروع في التطرق إلى رحلته، ليسهل على القارئ فهم واستيعاب الأسباب والدوافع التي جعلت الإمام أبو عصيدة يختارها .

فأهل المغرب الأوسط عرفوا الرحلة إلى المشرق، وبصفة خاصة إلى الحجاز، وأعطوا لها عناية كبيرة، فالحياة الفكرية ببلاد المغرب أفرزت نشاطا علميا من نوع متميز. ولاسيما بعد فترة حكم المرابطين والموحدين من بعدهم، إذ استعادت فيه بلاد المغرب انتعاشا علميا وثقافيا كان مقصد الحج أحد دعائمه¹⁰.

وبما أن الإمام أحمد أبو عصيدة من الشخصيات المغاربية التي تميزت بسيرتها ورحلتها نحو المشرق، والتي من خلال دراستنا لها رصدنا رحلتين علميتين، اتسما بطابعهما الديني والعلمي، وهما:

- الرحلة الأولى: والتي لا نعرف عنها شيئا تقريبا¹¹، إلا أنه كان الغرض منها قضاء فريضة الحج على حد قول أبو عصيدة¹²: "إني لما ارتحلت الرحلة الأولى لقضاء حجة الإسلام، وما أقيمت بالحجاز إلا بعض أعوام وعدت إلى أن وصلت إلى حضرة تونس ..."، ونستشف من هذا الكلام أنه لم يبق طويلا في الحجاز ودل على ذلك مصطلح "بعض أعوام" الذي يدل على عدم الكثرة والمكوث طويلا، ليعود بعدها كما صرح إلى موطنه بعد حنينه واشتياقه له.

- الرحلة الثانية: ويقصد بها ثاني رحلة للمشرق التي قررها بعد عودته لموطنه، فأبي عصيدة عندما رجع إلى تونس كان محمل بمشاعر الحنين والشوق لأهله وخلانه عازما الإقامة والاستقرار بينهم إذ يقول¹³: "وكانت الذكرى لذلك تقتلني وإلى المعاهد المألوفة في كل وقت تشوقني.... إذ ليس الغرض في نفس الأوطان، وإنما السر في السكان، فما شكيت الأوجال والأحزان إلا لتذكر الأهل والجيران والأصدقاء والإخوان، أو لما جرى فيها من أيام الصبا وكان"، لكنه لم يواصل سيره نحو بجاية وقرر العودة إلى الحجاز وذلك راجع إلى عدة أسباب منها الاجتماعية والسياسية¹⁴.

ولعل النفسية أهمها إذ أن الإمام أحمد بعد عودته لتونس وسماعه بهجرة أصحابه وإدراك الموت للبعض منهم وأقاربه على حد قوله¹⁵: "إلى أن وصلت إلى حضرة تونس بلدكم، ومثلت فيها كما علمتم، بين أيديكم فوجدت معظم من عرفناه بها من الإخوان الكرام والأئمة الأعلام.... ومن كان بيننا وبينه محبة وصحبة وذمام، قد دارت كؤوس الحمام، والتقطهم الموت... ثم سألت عمّن

تركناه بالأوطان، من الأهل والسكان والأتراب والإخوان.... صاروا في الأجداث والأكفان"،
شعر بالغبية والوحشة وأيقن من عدم جدوى بقاءه فقرر الارتحال، وقد أشار إلى هذا بكلمات
واضحة كانت كما يلي¹⁶: " واضطرت في الحشى من الشوق الجمرات وفاضت العبرات
...فانتدبت في الوقت لرحيلي، وجعلت الصدق في عزم دليلي .. ."، ليفضل بعدها المجاورة¹⁷
للحرمين الشريفين إلى أن تتوفاه المنية .

وبهذا نكون قد قدمنا ولو صورة موجزة عن رحلتنا الإمام أبي عصيدة، التي من المحتمل أنه
خلالها أو حتى في مسقط رأسه قد التقى بمجموعة من الشيوخ الذين تلقى منهم مختلف العلوم
والمعارف، وهذا ما سنوضحه في العنصر التالي.

3.1 شيوخه:

إن مصادر التراجم لم تقدم لنا أي معلومة بخصوص الإمام أبو عصيدة أو العلماء الذين تتلمذ
عنهم، وكل ما استقيناه كان من خلال رسالته لصديقه المشدالي التي استطعنا من خلالها أن نرجح
ونحلل أقواله التي ذكرها عن بعض الأعلام ممن التقى بهم ونذكر من بينهم الإمام الفقيه محمد
المشدالي مفتي بجاية والد صديقه أبو الفضل المشدالي، الذي كان يرباه ويفضله على الأقارب
على حسب تعبير أبو عصيدة¹⁸ " ما كان يوجهه لي السيد المولى الوالد، الإمام العلامة الأوحده
الماجد زاد الله في عمره وبقائه .. وما كان لي عنده من الحظوة على الأنداد والأتراب، بل على
القراية وذوي الرحم والأنساب"، ونخمن من هذا القول أن أبي عصيدة تلقى في بجاية تعليمه
الابتدائي على يد محمد المشدالي وشيوخ ابنه أبو الفضل وذلك لأنه عدده بمنزلة الولد، دون أن
ننسى أنه التقى بصديقه أبو الفضل ودائما يشيد بعلمه ومن المؤكد أنه أخذ منه هو الآخر في
بعض علمه وسمع منه وكذلك من أخوه محمد بن محمد المشدالي¹⁹، وفي هذا الباب يرجح بل
ويؤكد الباحثين أن أبو عصيدة من أبرز تلاميذ أبو الفضل، حيث كتب له رسالة أشاد فيها عن
شوقه لأستاذه وحبه له²⁰، ومن هذه الأبيات نذكر :

هذي مراسلة العبد الفقير إلى

كهف الأنام وفخر الوقت والسلف

أنته تنشر ما قد حاز من شيم

ومن جلال ومن عز ومن شوف

وأن تذكر أياما به سلفت

لله ما كان أحلاها لمعترف²¹

والشيخ أبي العباس أحمد القروي الذي امتثل بين يديه²² وهو بتونس وجلس معه مما يرجح أنه أخذ عنه وسمع منه في بعض علمه، بالإضافة إلى الشيخ أبا العباس الأيدي والفقير فخر الدين عثمان الطرابلسي الشامي، و اللغوي أبو الفتح بن علي بن إسماعيل الأزهرى المصرى²³ ممن التقى بهم في الحرمين وجلس معهم ومن المرجح سمع وأخذ منهم .

4.1 وفاته:

لقد عاش الإمام أبو عبيدة حياته باحثا عن السلام الداخلي ومجاورة الحرمين طامعا في الأجر والثواب وخدمة الإسلام من خلال ذلك، إلى أن وافته المنية، ورغم أننا لم نقف على تاريخ وفاته إلا ما تركه لنا الدكتور سعد الله أبو القاسم في تحقيقه على الرسالة²⁴، ألا وهو حوالي 865هـ والذي ربما وجده على مخطوطة الرسالة نسخت من طرف الناسخ .

وفي خاتمة عرضنا للسيرة الذاتية نخلص من خلالها إلى أن احمد أبو عبيدة من الشخصيات المعهورة تاريخيا رغم ما قدمه من مجهدات علمية داخل باحات وزوايا الحرمين الشرفين، وبهذا يكون من الشخصيات التي أوجحت تاريخيا ومصادره سكتت عنها، ونكون بهذا نؤيد قول الدكتور أبو القاسم سعد الله في طرحه، إذ يقول : " عندما ينتهي القارئ من قراءة ما كتبناه عن (رسالة الغريب) قد يسأل نفسه : لماذا لم يترجم مؤرخو الرحلات والأدب لحياة مؤلفها أبي عبيدة البجائي في كتب التراجم والطبقات . ذلك أن البجائي لم يكن نكرة بين علماء وأدباء القرن التاسع الهجري (15م) . لقد كان معروفا لبعض علماء تونس ومصر والحجاز والشام . وقد امتلأت كتب التراجم بمغمورين لا نكاد نجد لهم مشاركة في مجريات عصرهم . إننا لا نعتقد أن البجائي قد أهمله معاصروه، ولكننا نعتقد أن ترجمته قد ضاعت فيما ضاع من التراث²⁵ .

2. جهود الإمام أبو عصيدة في التأليف

إن الحياة التي عاشها الإمام أبو عصيدة في البيئة الحجازية جعلته يستقر نفسيا وروحيا بالمجاورة، ويتجه نحو التأليف في مجال أدب الرحلة الذي اشتهرت في ذلك العصر، بالإضافة إلى نظمه في مجال شعر المدائح النبوية، كما اشتهر بين الباحثين بكتابته في مجال الرسائل، والذي تميز فيه بأسلوبه الرزين .

ليترك لنا الإمام أبي عصيدة أثناء فترة استقراره بجوار الحرمين مؤلفين مميزين، أحدهما في الأدب الثري وهو عبارة عن رسائل لصديقه المشدالي، والثاني كتاب في الرحلة تضمن رحلته نحو الحجاز ومن لقيهم من الأعلام والطوائف المختلفة، وكانا كالآتي :

1.2 رسالة الغريب إلى الحبيب :

وهي عبارة عن رسالة كتبها الإمام أحمد أبو عصيدة لصديقه أبي الفضل المشدالي، احتوت على أخبار هامة على حياة الكاتب ومؤلفاته²⁶، وكذلك عن صديقه وحياته في المشرق وأشعاره، وأخبار بعض الجزائريين والمغاربة ممن زاروا المشرق، احتوت أيضا أشعار له ولغيره، وكان كل هذا في 75 ورقة مخطوطة²⁷، لم يحدد في نهايتها تاريخ كتابتها أو الانتهاء منها ماعدا ذكر شهر شوال²⁸.

ويمكن أن نعبر عنها بأنها إحدى ثمرات المراسلات التي أرسلها الإمام لأبو الفضل المشدالي، وضمت كما اشرنا سابقا شذرات علمية، وأخبار عن الرحلة، كما انه عرض فيها لكتاب آخر سماه " أنس الغريب وروض الأديب " ²⁹.

ومن خلال قراءتنا لهذه الرسالة يتضح لنا أن الإمام البجائي كان ينظم الشعر ويحفظ الكثير منه، وكان له ذوق أدبي سليم، ترجمته لنا مختاراته الشعرية، وفي حرصه على جمع شعر صديقه المشدالي³⁰، بالإضافة إلى إشارتها لفترة إقامته في مصر وعلاقته بأبي فضل المشدالي وبعض العلماء³¹.

2.2 أنس الغريب وروض الأديب :

ألف هذا الكتاب بالحجاز، وهو قيم ومفيد في محتواه لكنه للأسف ضائع ولم يصلنا منه إلا شذرات أوردتها الكاتب نفسه في رسالته لصديقه³²، وقد جمعه أثناء رحلته الثانية وقال عنه نقلا عما أورده أبو القاسم سعد الله " انه كتاب يسبي برونق آدابه الخواطر والعقول، ويسلي عن المعاهد والطلول"³³، وقد احتوى على مقدمة وفصول :

تضمنت المقدمة ذكر رحلته من تونس إلى الحجاز وترجم للعلماء الذين التقى بهم في رحلته³⁴، وكذلك من لقيهم في الحرمين الشريفين من زوار وأحوالهم وأخبارهم³⁵.

أما باقي الفصول فذكر فيها أصناف العبادات و أنواع الطاعات، وما يحتاجه المرید من جمع الإيرادات، والنكت والنوادر، ثم عدد المصادر التي استقى منها أخباره³⁶ بقوله³⁷ "جمعت من كتب عديدة، جليلة ومفيدة، من جملتها كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي.... (ثم ذكر مجموعة من أمهات الكتب الفقهية والتاريخية والأدبية والصوفية بلغت حوالي عشرين قائلا) وغيرهم".

بالإضافة إلى إشارته لشيخ ومناقب التصوف وعقائدهم³⁸، وإن الملاحظ على أبواب هذا الكتاب أنها تعبر عن التيار الصوفي الذي صبغ أسلوب كتابة الكاتب وأكد هذا القول الدكتور أبو القاسم سعد الله بقوله³⁹ " فإنه انجرف في تيار التصوف .. فقد خصص فصول كتابه أنس الغريب وروض الأديب لهذا العلم... ".

أما الغرض من نظمه هو الأناج والاعتاظ به في وحدة الغربية على حد تعبيره " فما القصد إلا التأنس في الخلوات، والاقتراء بما فيه من الفوائد الجلوات والإشارات الحكيميات واللطائف الوعظيات، وأن يكون جليسي في خلواتي، وأنيسي في غربتي ومدكري في غفلي، فنعم جليس غير ناطق الكتاب . ونعم الحبيب بعد فراق الأحباب"⁴⁰.

بينما مصادره فهي غزيرة ومتنوعة جمعت بين كتب الدين والأدب والأخبار والتصوف، وقد بلغت أكثر من عشرين مرجعا. منها كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، ورسالة القشيري، وحلية الأولياء لأبي نعيم، وقوت القلوب، وصفوة الصفة، ومناقب الأبرار، وبستان العارفين، وريع

الأبرار، ورحلة ابن رشيد، والإحاطة لابن الخطيب، وكتاب آداب الدين والدنيا، وفردوس المحب، وسلاح المؤمن، والترغيب والترهيب⁴¹.

وبهذا نكون قد قدمنا في هذا الجزء من المقالة ما وقع بين أيدينا من مؤلفات أبي عصيدة في الحجاز، لنكمل بعدها سرد انجازاته ونشاطاته الفكرية الأخرى من خلال العنصر الأخير من المقالة .

3. جهود الإمام أحمد أبو عصيدة في تنشيط الحركة العلمية بالحجاز

يعد الإمام أحمد أبي عصيدة من العلماء المغاربة الجزائريين الذي كرسوا أنفسهم لخدمة العلم في حضرة الحرمين الشريفين، ولعبوا دورا كبيرا في تفعيل الحياة الفكرية داخله، وقد استطاع بذلك أن يلقي شهرة داخل الحرم المكي والمدني وأن يجذب له الوفود، خاصة من المغاربة وتحقق له ذلك من خلال مجموعة من الانجازات سنذكرها في الفقرات التالية .

دور وشهرة لم تكن لتتحقق لولا المكانة العلمية لمكة والمدينة اللتين كانتا منتهى الحركة العلمية بسبب الرحلات والمجاورة، وهي ميزة انفردت بها عن سائر الأقطار الإسلامية، حتى قيل أن بعض العلماء إذا افتقد كتابا ولم يستطع الحصول عليه رغم تطوافه في البلدان، لجأ إلى الإعلان عنه في الحج طمعا في معرفة مكانه والوصول إليه⁴².

وهكذا تتضح لنا أهم الأعمال التي قام بها الإمام أبي عصيدة وأجلها داخل الحرم وهو تكريس نفسه وجل أوقاته للتدريس⁴³، وكان يرى في عمله كمدرس هو أسمى الأمانى وأصدق الأعمال والراحة النفسية، وقد اعتمد في منهج تدريسه على أمهات الكتب الإسلامية والفقهية، كالصحيح - صحيح مسلم وصحيح البخاري -، وكتاب الشفاء للقاضي عياض⁴⁴.

وهو المنهج المتبع في التدريس خلال تلك الفترة داخل الحرمين، إذ كان الشيخ يقرر الموضوعات التي يرغب في تدريسها، والطريقة الملائمة، كما كان للطالب أن يختار شيخه، والموضوع الذي يرغب في تعلمه، وله حرية الانتقال من حلقة إلى أخرى حسب رغبته⁴⁵.

ونعز هذا التطور في منهج التعليم للإمام أحمد أو من عاصره بالتدريس في الحرم إلى كون المسجد الحرام يعد آنذاك جامعة علمية لا تعرف السكون، ولا تغلق أبوابها ساعة من ليل أو نهار، فقد كان العلماء من بعد صلاة الفجر مابين تدريس وتعليم وإجابة لأسئلة الطلاب والمصلين، ومنهم من جالس للإفتاء، أو القضاء⁴⁶. وهو الوقت الذي قام فيه إمامنا بالتدريس والمحاضرة فيه .

وكان يقدم دروسه في أغلب الأحيان بين المنبر والضريح وهو مستقبل الحجرة ومستندا على الحراب⁴⁷، خاصة في شهر رمضان⁴⁸ ومواسم العمرة والحج، ولحب الإمام لعمله وصدقه في العملية التعليمية توافد على درسه عدد غفير من الطلاب والعلماء⁴⁹، خاصة في شهر رمضان حيث وصف لنا ذلك بقوله⁵⁰: "...وجم غفير من العلماء الأعلام والسادات الكرام، ومن كانت بالمدينة المشرفة من الزوار و الأضياف، ومن شملته مراحم الألفاف ... فلما كملت القراءة بالختم بحضرة هذه الأئمة ..".

ولم يقتصر عمل الإمام على التدريس فقط داخل الحرم بل عمل أيضا على مرافقة الوفود القادمة للحرم المدني وإرشادهم في مناسكهم⁵¹، وتلقينهم مختلف المعارف، ليتطور نشاطه فيما بعد من نشاط التدريس واستقبال الوفود داخل الحرمين، إلى أنشطة أخرى في مجالس المدينة المنتشرة آنذاك وإبداء ما جادت به قريحته في ميدان العلم فيها⁵².

ومن هنا يتضح لنا أن مجاورة أبو عبيدة وغيره بمكة والمدينة شكلت فرصة عظيمة لتجمع نخبة العلماء المسلمين من كافة أنحاء العالم الإسلامي، وتتفق النصوص على الإشادة بهم، وذكر مناقبهم وأخلاقهم الفاضلة، وما كانوا يتميزون به من حميد السحايا، ويمكن تأكيد فضلهم وحسن أخلاقهم⁵³، من خلال ما أورده أبو عبيدة في رسالته أو الاطلاع على كتابه المفتقود في المستقبل .

ونصل أيضا من خلال ما سبق بالقول أن أبو عبيدة وغيره من المجاورين شكلوا ظاهرة علمية فريدة ساهمت في جعل مكة والمدينة محط أنظار علماء المسلمين، وطلبة العلم والمعرفة، ومركز إشعاع ثقافي حتى أصبحت مجمعا للعلماء من كافة أصقاع العالم الإسلامي، وعقدوا بها الحلقات

والمناظرات كما فعل الإمام أحمد، وقصدها الطلاب للحصول على شهادات علمية، وملوا منها الكتب إلى أوطانهم، مما جعل مكة والمدينة يصبحان عاصمتا الثقافة العربية⁵⁴.

وبهذا نكون قد قدمنا موجزا عن الإمام أبي عبيدة وأهم الأعمال التي قام بها في حضرة الحرمين وترك من خلالها بصمة فكرية وعلمية، عبرت على مدى تمكنه وتضلعه في العلوم الإسلامية، رغم أنه أثناء البحث فيها واجهتنا صعوبة أمام شح المصادر التي تتحدث عنه ودوره العلمي في الحجاز .

خاتمة :

نصل من خلال ما سبق إلى ما يلي :

- إن الإمام أحمد أبي عبيدة من علماء المغرب الأوسط الذين هاجروا للحجاز وقرروا الاستقرار بها، وذلك راجع لتضافر عدة أسباب منها الاجتماعية والسياسية ولعل أهمها تلك النفسية .

- إن الإمام أبي عبيدة لم يكن مروره عابرا بالحجاز بل ساهم في تنشيط الحركة التعليمية والعلمية بها، مخلفا لنا بصمته في مجال التأليف والتدريس.

- إن شح المصادر التي تتحدث عن الإمام جعلتنا لم نقف على أي ترجمة له في أمهات كتب التراجم المغربية وحتى المشرقية ، ولا ندرى ما الأسباب التي لم تجعلهم يترجمون له، وكل ما وقع بين أيدينا من معلومات له عثرنا عليها من خلال ترجمته لنفسه في رسالته لصديقه المشدالي .

- إن رسالة الغريب إلى الحبيب تعد المصدر الأوحده الذي بين أيدينا الذي نستقى منه المعلومات حول هذه الشخصية التي لم نكن لنطلع عليها لولا مجهودات الدكتور أبو القاسم سعد الله في إخراجها من قالبها المخطوط إلى كتاب مطبوع .

- إن هذه المعلومات التي قدمناها للإمام قابلة للزيادة وفتح مجال البحث أمام الباحثين خاصة أن مواد استقاء العلم في تطور وقد يقع بين أيدينا مخطوطات حول هذه الشخصية أو نعثر على كتابه المفقود.

أما بخصوص التوصيات فكانت كما يلي:

- إن مرحلة حياة الإمام أبي عصيدة في الحجاز توجب تفعيل الرحلات العلمية نحو المدينة المنورة والاطلاع على الأرشيف المخطوط هناك عسى أن نعثر على ما يشفى ويشبع الفضول العلمي حولها.

- لبد من تكاثف مختلف مراكز البحث والمخطوطات والزوايا وفتح أبوابها أمام الباحثين من أجل الحصول على هذه المخطوطات لعله وعسى نجد نسخة عن الكتاب الضائع للإمام أبو عصيدة فيها.

- لبد من التوجه نحو دراسة الشخصيات العلمية الجزائرية في الحجاز، وتطرق لآثارها والأسباب التي جعلتها تقرر المجاورة.

قائمة المصادر والمراجع :

المصادر:

(1) أحمد أبو عصيدة البجائي (ت865هـ) ، رسالة الغريب إلى الحبيب ، تع/ سعد الله أبو

القاسم ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1، 1993.

المراجع:

*الكتب:

(1) حفناوي بعلي ، الرحلات الحجازية المغربية : المغاربة الأعلام في البلد الحرام — دراسة

نقدية توثيقية ثقافية ، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع ، الأردن، 2018.

(2) حفناوي بعلي ، صورة القدس الشريف في الرحلات المغاربية والغربية - دراسة مقارنة - ، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع ،الأردن ، 2020.

(3) سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 1998، ص85.

(4) نوال عبد الرحمن الشوابكة ، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري ، دار المأمون للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط1 ، 2008.

*المقالات:

(1) سعد الله أبو القاسم ، رحلة أبي عصيدة البجائي من بجاية إلى الحجاز ، مجلة العرب، مج 25، ع10، 1990.

(2) آمنة سليمان البدوي ، الرحالة الأندلسيون والمغاربة ورحلاتهم من (ق 3هـ - ق9هـ) (تقص وعرض ،مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية ، مج 41، ع2، 2014.

(3) عبد الرؤوف زواري أحمد وآخرون، " نماذج علماء المغرب الأوسط الذين درسوا بالحجاز خلال القرنين السابع والتاسع الهجري /الثالث عشر والخامس عشر ميلادي" ،مجلة العربية للأبحاث والدراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، مج13، ع1، 2021.

(4) أسماء بن عماره ، عشوري قمعون ، الرحلات الحجازية آلية للتواصل العلمي بين المغرب الأوسط ومصر خلال القرنين (7 - 9 هـ / 13 - 15 م) ، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية ، مج 10 ، ع 3 ، 2021

(5) وفاء بنت عبد الله سليمان المزروع ، إسهام الرحالة والمجاورين الأندلسيين على الحياة العلمية بمكة المكرمة من القرن الثاني حتى نهاية القرن السادس الهجري ، ندوة مكة عاصمة الثقافة الإسلامية ، مكة المكرمة ، 1436هـ .

(6) ماجد بن عبد الله خليل الحازمي ، الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في

عصر المماليك ، مجلة البحث العلمي في التربية ، ع 19 ، 2018

(7) محمد سيد كامل ، الحلقات التعليمية في المسجد النبوي - دراسة مقارنة بين

الحقب التاريخية منذ البناء وحتى العصر السعودي - مجلة الدراسات العربية ،

(د، ع).

(8) مريم هاشمي ، إسهام علماء بجاية في الحركة العلمية في المغرب الإسلامي خلال

القرنين (7- 8 هـ / 14 - 15 م) ، دورية كان التاريخية ، ع 21 ،

2013.

*الرسائل الجامعية:

(1) عبد الرؤوف زواري أحمد، العلاقات العلمية بين المغرب الأوسط والحجاز خلال

القرنين 7-9 هـ / 13-15 م ، دكتوراه ، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي

- الجزائر ، 2020-2021 .

الهوامش:

1 أحمد أبو عصيدة البجائي(ت865هـ)، رسالة الغريب إلى الحبيب، تع/ سعد الله أبو القاسم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993، ص44.

2 نفسه، ص 7 .

3 ينظر: حفناوي بعلي، الرحلات الحجازية المغربية : المغاربة الأعلام في البلد الحرام - دراسة نقدية توثيقية ثقافية، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، 2018، ص336. سعد الله أبو القاسم، رحلة أبي عصيدة البجائي من بجاية إلى الحجاز، مجلة العرب، مج 25، ع10، 1990، ص 622.

4 عبد الرؤوف زواري أحمد وآخرون، " نماذج علماء المغرب الأوسط الذين درسوا بالحجاز خلال القرنين السابع والتاسع الهجري /الثالث عشر والخامس عشر ميلادي" ،مجلة العربية للأبحاث والدراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج13، ع1، 2021، ص 64- 65.

5 أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص 44.

6 عبد الرؤوف زواري أحمد وآخرون، المرجع السابق، ص 64- 65.

7 سعد الله أبو القاسم، رحلة أبي عصيدة البجائي من بجاية، المرجع السابق، ص 622- 623.

- 8 أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص 44.
- 9 عبد الرؤوف زواري أحمد، المرجع السابق، ص 63.
- 10 أسماء بن عماره، عشوري قمعون، الرحلات الحجازية آلية للتواصل العلمي بين المغرب الأوسط ومصر خلال القرنين (7 - 9 هـ / 13 - 15 م)، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، مج 10، ع 3، 2021، ص 456.
- 11 سعد الله أبو القاسم، رحلة أبي عصيدة البجائي من بجاية، المرجع السابق، ص 627.
- 12 أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص 73.
- 13 نفسه، ص 72.
- 14 حفناوي بعلي، الرحلات الحجازية المغربية، المرجع السابق، ص 335.
- 15 أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص 73.
- 16 نفسه، ص 74.
- 17 حفناوي بعلي، صورة القدس الشريف في الرحلات المغربية والغربية - دراسة مقارنة -، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، 2020، ص 200.
- 18 أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص 82.
- 19 نفسه، ص 89.
- 20 مريم هاشمي، إسهام علماء بجاية في الحركة العلمية في المغرب الإسلامي خلال القرنين (7 - 8 هـ / 14 - 15 م)، دورية كان التاريخية، ع 21، 2013، ص 120.
- 21 أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص 42.
- 22 حفناوي بعلي، الرحلات الحجازية المغربية، المرجع السابق، ص 336.
- 23 أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص 91، 93، 94.
- 24 نفسه، واجهة الكتاب.
- 25 نفسه، ص 5.
- 26 آمنة سليمان البدوي، الرحالة الأندلسيون والمغاربة ورحلاتهم من (ق 3هـ - ق 9هـ) تقص وعرض، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 41، ع 2، 2014، ص 406.
- 27 سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1998، ص 85.
- 28 نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2008، ص 71.
- 29 سعد الله أبو القاسم، رحلة أبي عصيدة البجائي من بجاية، المرجع السابق، ص 623.
- 30 أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص 7.
- 31 نفسه، ص 20.
- 32 سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 86 - 87.
- 33 سعد الله أبو القاسم، رحلة أبي عصيدة البجائي من بجاية، المرجع السابق، ص 625.

- 34 أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص 89-91.
- 35 نفسه، ص 91.
- 36 سعد الله أبو القاسم، رحلة أبي عصيدة البجائي من بجاية، المرجع السابق، ص 626.
- 37 أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص 93.
- 38 نفسه، ص 92.
- 39 سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 110.
- 40 أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص 92-93.
- 41 نفسه، ص 29 .
- 42 وفاء بنت عبد الله سليمان المزروع، إسهام الرحالة والمجاورين الأندلسيين على الحياة العلمية بمكة المكرمة من القرن الثاني حتى نهاية القرن السادس الهجري، ندوة مكة عاصمة الثقافة الإسلامية، مكة المكرمة، 1436هـ، ص 85.
- 43 ينظر : سعد الله أبو القاسم، رحلة أبي عصيدة البجائي من بجاية، المرجع السابق، ص 623، نوال عبد الرحمن الشوابكة ، المرجع السابق، ص 30.
- 44 حفناوي بعلي، الرحلات الحجازية المغربية ، المرجع السابق، ص 336.
- 45 محمد سيد كامل، الحلقات التعليمية في المسجد النبوي - دراسة مقارنة بين الحقب التاريخية منذ البناء وحتى العصر السعودي - مجلة الدراسات العربية، (د،ع)، ص 3150.
- 46 ماجد بن عبد الله خليل الحازمي، الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك، مجلة البحث العلمي في التربية، ع 19، 2018، ص 369.
- 47 عبد الرؤوف زواري أحمد وآخرون، المرجع السابق، ص 95.
- 48 أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص 64-65 .
- 49 عبد الرؤوف زواري أحمد، العلاقات العلمية بين المغرب الأوسط والحجاز خلال القرنين 7-9هـ / 13-15 م، دكتوراه، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي - الجزائر، 2020-2021، ص 87.
- 50 أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص 65.
- 51 سعد الله أبو القاسم، رحلة أبي عصيدة البجائي من بجاية، المرجع السابق، ص 624.
- 52 عبد الرؤوف زواري أحمد وآخرون، المرجع السابق، ص 65.
- 53 وفاء بنت عبد الله سليمان المزروع، المرجع السابق، ص 86.
- 54 نفسه، ص 93